

## لقاء فى القصر

ما كان أطول الليالى على امرئ القيس، وهو ينتقل فى أحياء العرب طريداً ذليلاً بعد أن سار عن جوار بنى طيئ، وقد اجتمع عليه شعور الذلة، وذهاب القوة وهم العيلة، وكان فى تنقله تساوره ذكريات ما نزل به من قسوة الأقدار ونحس الطالع؛ وكأن القضاء كان يلاحقه أينما حل. فما نزل فى حى حتى ثارت فيه الحروب، واضطربت فيه الأحوال، واضطر أن يرحل عنه مكروهاً مطروداً.

انتهى به السير بعد أن خرج من أرض طيئ، وهو لا يعرف له وجهة، إلى سهل فسيح تتموج فيه الربى الصخرية، والكتبان الرملية، لا يتخللها نبات ولا يؤنس وحشتها أنيس. فحل فيه حيث أمسى بعد أن قضى اليوم كله فى سير حائر يتجه فيه إلى غير وجه، وضرب خيامه هناك، ونزل مع صاحبيه اللذين بقيا له من الدهر: يزيد بن معاوية الجون وأخته هند. ولم تكن له إبل كثيرة يطلب لها المرعى، فلقد أصبح لا يملك منها سوى بضع نياق ورواحل، اشتراها بعد أن سلبت إبله ورواحله فى بلاد طيئ؛ ولهذا لم يعبأ أن يتلفت حوله ليرى أين حل، بل كان وهو يقيم خيامه يساوره شعور قوى من اليأس، ودّ معه لو انشقت الأرض فابتلعتة، وابتلعت معه تلك الأخت الحبيبة التى كان قلبه

يدمى من خوف الحوادث عليها، أو لو نزلت عليهما من السماء  
صاعقة أذهبت عنهما معاً عبء الحياة التى أصبحت حملاً لا طاقة  
لهما به!

ولما فرغ هو وابن عمه يزيد من إقامة المنزل ذهب يدور فى  
الفضاء يلتمس بعض الأحطاب ليوقد بها ناراً تقيهم برد الليل الذى  
عودهم القسوة فى الليالى المنصرمة، حتى إذا ما تهيأ له من ذلك  
مقدار كاف عاد إلى جوار الخيمة فأوقد النار، وجلس إلى جانبه  
يزيد يستدفئان فى صمت وحزن، وأقبلت عليهما هند بعد أن  
فرغت من تهيئة المتاع، تحمل جفنة من خوص النخل فيها شىء  
من التمر وعُسُّ من اللبن احتلته على عجل، فوضعت ذلك بين  
أيديهما وجلست إلى جوارهما تختلس النظرات إلى وجه أخيها  
العابس، وأحسّت وخزة أليمة فى قلبها عندما رأت ما اعتراه من  
التغير والاعتلال.

فمد امرؤ القيس يده إلى الجفنة فأخذ منها تمرات جعل يأكلها  
فى غير إقبال، كأنه لم يقض ذلك اليوم كله لم يطعم طعاماً، وشاركه  
ابن عمه فى زاده، وأصابته هند تمرتين معهما، وشربت شيئاً من  
اللبن، ثم أقبلت على النار وذهبت فى أفكارها الحزينة صامتة.  
وفيما كانوا فى ذلك العشاء الكئيب سمعوا حساً، فأسرع الرجلان  
قائمين إلى سلاحهما يستعدان، ثم ذهبا إلى جانب كئيب فقاما عنده  
يستمعان إلى الصوت البعيد لعلهما يهتديان إلى معرفة القادمين؛

وقامت هند تتلفت حولها في ظلام الليل وسارت في آثارهما حتى وقفت خلفهما تطلب الاطمئنان في جوارهما؛ ومضت ساعة طويلة ثم ظهرت أشباح القادمين تتراقص في الظلام، فإذا ثلاث رواحل مقبلة؛ فلما اقترب الوافدون منهم نادى أحدهم مستأذناً، فانجلي الأمر وعرف امرؤ القيس وصاحباها أن هؤلاء قوم أتوا يطلبون منزلاً عندما لاح لهم ضوء النار، إذ حسبوا أنهم يجدون عندها حياً أهلاً. فأسرع امرؤ القيس نحوهم ملبياً وأسرع يزيد وراءه لاستقبال الأضياف معه، وذهبت هند إلى النار فألقت فيها بعض الحطب وأسرعت في حيرة إلى الخيام تلتمس لهم طعاماً؛ وفيما هي في اضطرابها تنقب في المزود والقعاب سمعت في خارج الخيام أصوات الرجال تتعالى مختلطة، فأسرعت إلى باب الخيمة، وأصاحت بسمعتها في شيء من الذعر فإذا بها تسمع حديث قوم متعارفين قد تلاقوا على غير انتظار فسرى عنها ما ساورها من الخوف، ودب فيها أنس غريب، وذهبت عائدة إلى ما كانت فيه من التماس الطعام؛ ولكنها سمعت أباها يناديها في خفة لم تعهد فيه مثلها منذ زمن طويل، فأقبلت مسرعة نحوه، فرأته مع أصحابه جاثين على الرمال حول بقرة وحشية، وهم يتحدثون في مرح ومودة. فلما اقتربت منهم نظر أخوها إليها ووقعت على وجهه أشعة النار فبدا وجهه متبسماً عليه مظهر من البشر والأنس وقال لها في مرح: «عمرو بن قمية! إنك لم تعرفيه يا هند. هو صديق ميمون النقبية،

وقد عثر لنا في مقدمه على هذه الهدية» وأشار إلى البقرة المطروحة بين يديه فتبسمت هند، وقالت في هدوء: «مرحباً به!».

فعاد امرؤ القيس إلى الحديث فقال: «وهذان صاحبان من فزارة». فقالت هند في نغمتها الأولى: «أهلاً وسهلاً!».

وكان امرؤ القيس وهو يحدث أخته قد أخرج من منطقته خنجرًا وجعل يشحذه على صخرة بجواره، فلما أتم قوله أقبل على البقرة وشرع يسلخها وأصحابه يساعدونه حتى قطعوها قطعاً، وقامت هند تحمّل المَزَع لتعدها للطبخ في القدور ثم أقبلت على النار فأطعمتها من الحطب، وأقامت حولها ثلاث أثافي من الحجارة وشرعت تجهز الطعام.

وكان امرؤ القيس يقطع حديثه مع أصحابه بين حين وآخر، ليقوم إلى أخته ويساعدها في مهنتها لهم، وهو كلما صنع شيئاً قال لها في صيحة طرب: «هكذا كنت أصنع بصيدي أيام كنت أعيش يا هند».

وبعد حين نضج اللحم شواءً ومسلوقاً؛ وشردت هند في المرق ثريداً، وذهبت هي وأخوها ويزيد بن معاوية يحملون الصحف، واجتمع القوم كلهم حولها في عشاء مرح يتجاذبون أطراف الحديث. قال أحد الفزاريين يرد على قول عمرو بن قمية: «هذه رمية أعرفها. إنها رمية السموعل إنه لا يصيب صيده إلا في نحره».

فأجاب عمرو بن قمية يخاطب امرأ القيس: «إنها تشبهُ رميتك يا أبا وهب».

فقال امرؤ القيس: «لقد طال عهدى بالصيد يا عمرو. من لى بيوم من أيامه!».

فقال الفزاري الآخر: «لا أظن إلا أن السموء وأصحابه قريبون من هنا. ولعلنا فى الغد نقع على آثارهم قريبة منا».

«فقال امرؤ القيس متحمساً يخاطب الفزاري: «ليت هذا يكون. أهو رجل ممن تحمد صحبتته يا ربيع؟».

فقال الربيع الفزاري: «هو ملك شاعر يا أبا وهب وهو أشبه الناس بك يا بن حجر».

فاهتز امرؤ القيس سروراً عند سماعه ذلك القول، وقال: «إنها لأيام صيد يا ربيع. لقد اهتزت نفسى إلى يوم منها».

فبادر الربيع قائلاً: «إننى أعرف رمية السموء. وما هذه البقرة التى وجدناها فى مسيرنا إلى هنا إلا من صيده؛ فإذا سرت معنا غداً فإنك لا بد ملاقيه فى بعض الطريق».

فبدت حماسة ظاهرة على وجه امرئ القيس، ولكنها اختفت سريعاً وحل محلها تردد وفتور، ثم قال فى نعمة حزينة: «ما أظنه إلا كسائر من حللت بينهم. لن أقصد أحداً من الناس بعد ما بلوت منهم، لن أعيش إلا فى هذا البر كأحد السباع».

فقال الفزاري: «ليس السموءل شبيهاً بأحد. هو أوحد العرب كرمًا وشجاعة ونبلاً، لن تجد مثله بين العرب يا أبا وهب». وكان القوم قد فرغوا من طعامهم عند ذلك، فقاموا واحداً بعد واحد يتفصحون في السهل، وبقي امرؤ القيس وحده مع صاحبه عمرو بن قمية، فقال له يخاطبه: «أرأيت كيف آل بي الأمر إلى هذه الوحدة يا عمرو؟».

فأجاب عمرو متأثراً: «لا عليك يا أبا الحارث، فلست أول من أخصى عليه صرف الدهر. هلم معنا إلى السموءل يا أبا الحارث، فليس لك خير من المقام عنده حتى ترى ذات عيبك».

فرفع امرؤ القيس رأسه في سرعة وقال: «أنا هب أنت إليه؟» فمال إليه عمرو وقال: «سأذهب إليه ليوصلني إلى الحارث بن أبي شمر الغساني فله عنده مودة».

فقال امرؤ القيس في شبه صيحة: «الحارث بن أبي شمر؟» فقال عمرو مخفضاً صوته: «نعم فإنني أطمع أن يوصلني إلى قيصر». فصمت امرؤ القيس ونظر إليه في دهشة، واستمر عمرو يقول كأنه يناجي نفسه بأمل أثير عنده: «نعم إلى قيصر. هذا ما بقي لي من الأمل. لا بد أن أرى أمي عنده».

فصاح امرؤ القيس: «ماذا تقول يا عمرو؟ ما عرفتك إلا ابن رجل من فزارة».

فقال عمرو: «نعم أنا ابن قميّة ولكن أبى أخبرنى عند موته عن حقيقة أمى. لقد تركتك كما تعلم بعد حرب بنى كنانة عندما دعانى أبى إليه فى مرضه. مسكين أبى! إننى لم أعرفه إلا عند موته. لم أعرفه إلا عند موته».

ورفع عند ذلك يده فمسح دمة نزلت على وجهه ثم استأنف قائلاً: «لما حضره الموت أفضى إلىّ بسر كنت أجهله».

فنظر إليه امرؤ القيس فى دهشة بالغة وبقى صامتاً، فاستمر عمرو يقول: «أخبرنى عن حقيقة مولدى، أخبرنى أن أمى امرأة رومية، عرفها أبى فى الشام، كانت راقصة جميلة، عرفها وأحبها، فولدتنى ثم تركتنى له، وهى اليوم عند قيصر».

فصاح امرؤ القيس كأنه يسمع حديث خرافة: «عند قيصر؟» فقال عمرو: «إنك لا تصدق، وأنا كذلك ما كنت لأصدق».

وسكت لحظة ثم قال بصوت منخفض كأنه يحدث نفسه: «إننى كنت أحد أصحابك إذ تضرب فى الأرض فى طلب اللهو، لا نستقر ولا نعبأ بأمر فى الحياة، وما كنت فى اضطرابى معك فى الأرض إلا وارثاً طبع أمى، هذا ما عرفه أبى، وهذا ما دعاه إلى التوزع بين كراهتى والرقعة على».

ثم أطرق حيناً، وقد داخله شعور قوى من الحزن والشجى، ورفع رأسه بعد قليل وقال: «ولكنى لن أستقر حتى أراها، إننى أحس كأنها تدعونى، ولا يشغل قلبى اليوم إلا أمل واحد، أن أرى أمى التى لم تقع عينى عليها منذ عقلت».

وساد الصمت بعد ذلك حيناً ، ثم قطعه امرؤ القيس قائلاً كأنه فى حلم : «قيصر ! هيهات يا صديقى !» .  
فقال عمر متحمساً : «بل لا بد أن أصل إليه ، سيوصلنى الحارث الغسانى إليه» .

فعاد الصمت مرة أخرى ، وأطرق امرؤ القيس يفكر وقد جاشت نفسه بآمال جديدة كما ينفذ الشعاع البعيد فى الكهف العميق ، قيصر ! كيف لم يخطر له من قبل أن يذهب إليه . أليس المنذر هو عدوه الذى يدل بجاه كسرى ؟ ألم يخذله العرب ويطرده وينفضوا عنه خوفاً من سطوة كسرى ؟ فكيف لم يتجه من قبل إلى قيصر عدو كسرى القوى ليجد عنده من النصر ما عجز عنه فى قبائل العرب ؟ ومرت فى ذهنه صور يتلو بعضها بعضاً : السموءل ، الحارث الغسانى ، قيصر ، تتعاقب عليه ، وتبدو متكررة ، حتى امتلأ بها عقله وقلبه . ولما ذهب القوم إلى مضاجعهم فى تلك الليلة ، لم يذق امرؤ القيس للنوم طعماً ، بل جعل يردد الآمال الجديدة التى طلعت عليه ، وعزم على أن يذهب مع صاحبه حيث يذهب ، لعله يجد من الأقدار إقبالا ، بعد أن طال انصرافها عنه وتجهمها عليه .

بكر عمرو بن قمية الصباح التالى خارجاً من خيمته إلى الفضاء ، بعد أن قضى أكثر ليلته ساهداً ، والتفت حوله يظن أن القوم لا يزالون جميعاً فى نومهم ؛ ولكنه عجب عندما رأى امرأ القيس جالساً وحده أمام خيمته مطرقاً يفكر وينكت الأرض بسيفه وهو فى غمده ،

فأسرع نحوه باسمًا، ولما أحس امرؤ القيس به التفت إليه مسرعًا، وقام مرحبًا وهو يتنفس كأنه كان في انتظاره فقال له عمرو مادًا إليه يده مسلمًا: «لعلى أراك يا أخى يومًا في حال خير مما أنت فيه؛ ولعلى أعود إليك يومًا أقدر على معونتك منى اليوم». فنظر إليه امرؤ القيس حينًا وما برح ممسكًا بيده، ثم مال به إلى ناحية وقال له: «أواثق أنت يا عمرو؟ أواثق أنت مما قلت لى بالأمس؟».

فأمسك عمرو بذراعه، ونظر إليه جادًا، ثم قال: «إن أبى لا يكذب على وهو على حافة قبره».

ثم أدخل يده فى جيبه، فأخرج منه علبة صغيرة، قد لفها فى منديل من الحرير الأخضر، وفتحها وأخرج منها عقدًا من اللؤلؤ تتوسطه قطعة من الحجر الأحمر الشفاف، ثم رفع الحجر إلى الضوء وقال لامرئ القيس: «إنك لا تقرأ كتابتهم».

ثم التفت إليه وقال له مشيرًا إلى كتابة على ذلك الحجر: «انظر إلى هذا النقش، إنه اسمها، هو اسمها بالحرف الرومى: تيودورا، تيودورا».

وعلت وجهه عند ذلك ابتسامة انتصار رقيقة، واستأنف قائلاً: «لقد أعطت أبى هذا العقد آخر مرة رآها فيها فى مدينة قيصر وكانت عند ذلك فى عهدها بمعرفة الأمير الذى صار فيما بعد قيصر الروم. كان ذلك الأمير ينتظر موت عمه، ليصل بعد موته إلى الملك، وقد توسلت أُمى إلى أبى أن يدعها وألا يتعرض لها خوف

أن يفسد ما بينها وبين الأمير، وأعطته ذلك العقد هدية يذكرها بها، وكان أبى يحبها، هكذا قال لى عند موته. فلم يشأ أن يفسد عليها حياتها وأملها، وعاد وحده إلى أرض فزارة كئيبيًا يائسًا، واحتفظ بذلك العقد من ذكراها ولقد أصبح الأمير ملك الروم وصارت أمى زوجًا له».

ثم رد العقد إلى العلبة متأثرًا وأقفلها بركة. ثم لف عليه المنديل وأعادها فجعلها عند صدره وأردف قائلاً: «إنها لن تكذبني إذا رأته هذا العقد، وستراني فوق ذلك ابنها بغير شك، فقد قال لى أبى إننى أشبهها».

ثم صمت وهو ينظر إلى الأفق فاتحًا عينيه كأنه يتطلع إلى الأمل البعيد الذى يلوح له عنده.

فوضع امرؤ القيس يده على كتفه برفق، ونظر إليه متوسلاً وقال بصوت ضعيف: «أما ترضى أن أصاحبك يا عمرو؟».

فالتفت إليه عمرو مسرعاً وقد فوجيء بهذا القول، وفتح عينيه مندهشاً، ثم قال بعد لحظة من الصمت وقد بدت على وجهه ابتسامة ضعيفة: «تصاحبني؟».

فهز امرؤ القيس رأسه مُنعمًا ولم يتكلم، ففتح عمرو ذراعيه وضمه إلى صدره قائلاً: «مرحبًا بك يا أختى، هلم فنلكن معًا نهيم مع الأقدار، كما كنا نهيم معًا فى القفار، ولعلنا نصيب ما نرجو من الخير معًا».